(٢١)

مواكبة حركة الحياة

إذا فرغ المجتهد من تدقيق مشروع فتواه بضوابط النسبية، فإن منهجية الاجتهاد تلزمه - فيما أرى - أن ينتقل مرحلة أخرى بأن يحرص على تكافؤ فُتياه وتجانسها مع قوانين حركة الحياة وظواهرها، بحيث يراعى الحكمة التى أودعها الله فى خلقه الخلائق، وفى إكسابهم الأخلاق والطباع، وما فى ثنايا ذلك من توافق وتكامل، أو تضاد وتناقض وافتراق، فإذا انتهى من ذلك: عَرَّجَ على مفاد التاريخ وطريقة جريانه وظواهره، فاعتبر بذلك، وجعل مذهبه فى فتواه منسجمًا مع إشارات التاريخ.

وهذه المعانى، وجعلها مرحلة فى منهجية الاجتهاد: إنما هى من إضافاتى الأصولية، وأنا اخترعتها وجعلتها قاعدة فى أصول الاجتهاد فى فقه الدعوة، وقد أنهيت تدوينًا أوليًّا لكتاب خاص فى حركة الحياة سأذكر لمحات قليلة منه هاهنا، وودَدْتُ أنى أوردت جميع الكتاب فى هذا السياق ضمن المبحث الأصولى، ولو فعلت لحصل تفهيم كثير وعميق لمعنى ارتباط الفتوى بالواقع وجذوره، ولكنى خفت نكير طلاب العلم الشرعى علىَّ؛ إذ فى ذلك غرابة، وكلام تحليلى لم يألفوه، ومازال فيهم أثرٌ من تقليد مهما ادعو حُب الاجتهاد والرغبة فيه، ولذلك رفقت بهم وبنفسى، ولم أغامِر هذه المغُامرة الجريئة، لأنها تضطرنا إلى أسلوب فلسفى لا يمكن أن يستوعبه بسرعة جيلُ الدعاة الحاضر؛ إذ النقلة فيه واسعة هى أشبه بالطفرة، ولو أوردت طريقتى فى فهم جذور الواقع وحركة الحياة لاستولت على إخوانى دهشة، ولذلك أحيلهم إلى الكتاب الكامل حين صدوره، وأن يقرنوا ما سيكون فيه من المعانى بفصول هذه الأصول، ليكتمل فهمهم لطريق الاجتهاد العريض، وأما الآن فإنى إنما أوردُ اللمحات العاجلة المختصرة التى فيها بعض التعويض عن المعنى الكامل، وليراجع القارئ فصل «بلوغ الذروة» فى كتابى «منهجية التربية الدعوية» من أجل زيادة تفهيم.

مواكبة حركة الحياة شرط ومنهج وأصل من أصول الفقه عندى

ومبحث مواكبة حركة الحياة ينضوى تحت عنوان شروط المجتهد كما ينضوى تحت منهجية الاجتهاد، ذلك لأن هذه المواكبة تستدعى العلم بطبائع هذه الحركة الحيوية، فهى شرط إذن وَصِفة للمفتى يتحلى بها ويجوّد بواسطتها مقدرته ومكنته الاجتهادية، بل أستطيع أن أذهب إلى أن «التجانس مع حركة الحياة» هو أكثر من شرط أو جزئية منهجية، وإنما هو «أصل» كامل مستقل من أصول الاجتهاد، شأنه شأن القياس والاستصلاح، وهو يعتمد على ثقافة شمولية تستخدم عطاء كل علوم النفس والاجتماع والاقتصاد والتاريخ، إضافة إلى العلوم التطبيقية البحتة، كما أنه يستلزم نمطًا تربويًّا يُكسب الفقيه الأخلاق والأذواق الراقية، وينضاف جميع ذلك إلى بصيرته الإيمانية العميقة المفترضة التى هى أصل سعيه نحو الاجتهاد، لتتولد من ذلك حصيلة عقلانية عاطفية تخترق الحجاب لتعرف الصواب.

إن هذه الحصيلة توازى فى الأهمية علم الفقيه بنصوص الشرع وتراث الإفتاء والتفريع والتقعيد المتراكم عبر القرون والذى أحاط ببعضه، وبهذه الحصيلة سيؤهل لتنزيل الأمور منازلها المعتدلة بين الإفراط والتفريط، والمحاباة والظلم، واللين والشدة، والحَرفية الحدية الجامدة والترخصية المتفلتة الرخوة.

* فتعرّف الفقيه على أسرار النفس يمنحه عند الفتوى دقة وتحاشيًا لتوليد ضرر معنوى أو أنواع من الأسف والإحباط والانغلاق والتشاؤم، ويمكن للفقيه أن يعرف ذلك من جعل وصف النفس السوية الوسطى مركز قياس، تتصاعد عنه مائة صفة إيجابية ربما تضيف كل منها مقدارًا من الحسن والزكاء إلى نموذج الوسط، وتتنازل عنه كذلك مائة صفة سلبية من المعكِّرات والوساوس، حتى تسفل أسفل سافلين، فيغدو الفقيه يتعامل مع مائتى صنف من النفوس وليس مع نفس واحدة، فمن بعد السوى: مطمئن، وقانع، وآمل، وواثق، وشغوف، ومستزيد، ومتحدٍ، ومقتحم، ومجالد، ومستَعْلٍ، فى سُلَّم يستمر. ومن دون السوى أيضًا: متردد، ومتراجع، ومتشائم، ويائس، ومتنكر لسلفه، وشاتم لنفسه، ومُحبَط، وخائن، وكاذب، فى دَرَك يسفل. لذلك سيتحرى الفقيه آثار ما

سيفتي به على هذه الأنفس جميعًا فيميل إلى تعدد الصواب والنظر النسبي أو يجعل أصل الفتوى التي تُفْتي بها النفس الوسطية قاعدة، ويجعل ما زاد أو نزل سبب استثناء.

* وإجالة بصر الفقيه في الخلائق من خلال علم الحياة (البايولوجي) يمنحه نظرة عميقة لمعنى التوازن، قياسًا على توازن المخلوقات والبيئات، ولمعنى التكامل، قياسًا على أن بعض المخلوقات تخدم أخرى أو تكون غذاء لها، وعلى التطور، في مراقبة لنسق التعقيد من مخلوقات الخلية الواحدة، إلى الكائنات غير المنظورة إلا بتكبير، إلى الحيوانات اللبونة، إلى الإنسان الذي خلق في أحسن تقويم.

* وإن إحاطة الفقيه بعلوم الإدارة يضعه في موقف المتمكن حين يفتي، من تقدير دقيق للمنازل المتدرجة بين الحزم والتسيب، والمركزية واللامركزية، والأداء الجماعي والأداء الفردي، والنمطية والإبداع، والحذر والمغامرة، والتخطيط والارتجال، وأثر كل ذلك على الفتوى.

* كما إن إحاطته بالنظريات المعمارية، وتأمله الطويل في الجماليات الهندسية: يغير روحه الداخلية لتكون فيها إحساسات التناسب والنسبية والتناسق وآثار التدرج والتناظر، فتأتي الفتيا بعيدة عن الشذوذ، بريئة من التكلف، سائرة مع السجايا الطبيعية.

* وللفن، كل الفن - في حدود الحلال - من تجريد أو تصوير غير ذي روح أو نقل العدسات لأحداث الحياة -: تأثير مكمل لهذا.

* ويمكن للفلسفة أن تَهَبَ الفقيه الجرأة اللازمة لافتراض حكم جديد ومحاولة البرهنة على صحته. وهذا الافتراض هو المرحلة الأولى للانعتاق من أسر التقليد الذي تتبلد معه الحواس لتقبل الشيء المكرر فقط وتجبن عن الإدلاء برأي، ولو لم يخرج الفقيه من الجولة الفلسفية إلا بهذه الروح الجريئة لكفته.

* وفي الأدب خيال مكمل لهذا، ورمزيات، وعاطفيات، وكلها تنحت أثقال التقليد وتُقرِّبُ الفقيه من منزلة التفكير الحر والاستنتاج، وتجعله يوسع المعنى الصغير، ويصقل الخشونة، ويُلمِّعُ الداكن الشاحب يجعله بَرَّاقًا، بحيث يقرن التكليف الصعب الذي تحويه الفتوى بزينة الأجر، وبنسبته إلى السمو الأخلاقي.

* ولا شك فى أن الرياضيات البحتة، ونظريات الهندسة المجسمة والمستوية تعطى الفقيه المقادير الأوفى من هذه الجُرأة المذكورة، إذ لها وجهان: وجه اعتماد كل معادلة أو نظرية على سابقتها، فتكون الزيادة الكامنة فى المعادلة الجديدة قضية تطويرية لها محلها فى سُلَّم تدرج الحقائق، وفى هذا ما يعمق روح الالتزام بالتراث السابق عند الفقيه ويمنعه من الطفرة التى تتجاهل التدرج. ووجه انطلاق كل معادلة أو نظرية أو قضية تطبيقية من محاولة اكتشاف جديد، ولو بطريقة تبدو لأول وهلة كأنها المجازفة المتورطة التى تحاول جاهدة أن تفتش لنفسها عن دليل يسند صحتها، فيضع الرياضى أو المهندس نفسه فى المعمعة، ويرمى بنفسه إلى المجهول، فتتركز كل لمعات فكره لمحاولة خلاصه ونجاته، فمرة يَسْلم، ومرة يهيم، وتدور من خلال هذه الورطات أكبر وأروع معارك الحياة بصمت كامل وسكون جوارح؛ إذ العقل يشتغل صاخبًا دائبًا مزدحمًا بالاحتمالات والبدائل والافتراضات، وفى مثل هذا ما يمنح الفقيه روحًا مثيلة تعشق التورط وركوب الصعاب الاجتهادية، فما أن تهدأ له معركة حتى يفتح جبهة أخرى، ويراه الناس ساكنًا وقورًا متوجهًا إلى القبلة فى زاوية مسجد ولعله ساعتئذٍ يدير فى داخله أضخم ملاحم الاجتهاد.

* وتقاس هبات علوم التاريخ، وفقه اللغة، وعلوم أخرى، على هذا العطاء للممارسة المعرفية والعلمية. والتاريخ حين يكرر نفسه: يضع أمام المفتى نتيجة يمكن تصورها جيدًا، وكانت أحداث التاريخ دومًا شواهد على صحة افتراضات وتحليلات نظرية. كما أن تقارب المعانى عند الاشتقاق اللغوى من جذر واحد تنبه إلى تقارب وجوه الفتوى عند الاستناد إلى سبب واحد فى واقعتين مفترقتين تولدتا من أصل مشترك قديم.

الأحكام الشرعية التزمت مفاد العقل السليم وراعت حقائق الحياة

وتكمن فى القرآن والسنة إشارة تسويغ إلى هذا المزج بين الاجتهاد فى الأحكام الشرعية وبسط ظواهر الحياة والموازين العقلية التى تحوم حولها الفلسفات والعلوم؛ ذلك أن المنهج القرآنى والمنحى السُّنى فى إيراد الأحكام وتعليم الحلال والحرام مزجا هذا المزج، وخلطا الأوامر والنواهى بمواعظ واستدلالات عقلية، وبتذكير بالفطرة واطّراد السنن الكونية والظواهر الحيوية. والمتأمل فى هذه الحقيقة المستقرأة يدرك أن هذا

الأسلوب هو الأسلوب الأمثل الذى ينبغى أن نتبعه فى محاولة الوصول إلى صياغة العقلية الاجتهادية التى تشرح ذلك الإجمال وتستنبط منه ما يحكم المستجدات، فإن النهاية لابد أن تستقى من البداية.

* إن خصائص العقلية الاجتهادية، من الاتزان والاعتدال والتجانس، وعدم الإغراب، والجرى مع الفطرة، وأمثال ذلك: لن ترسخ من غير فهم صحيح للحياة مبنى على معرفة تفصيلية لكل ظواهرها، مع معرفة للنفس البشرية بكل خلجاتها. والأصل فى الحكم الشرعى - فى بُعده القانونى التكليفى الإلزامى - أنه جاء مراعيًا لحقائق النفس والقدرة العقلية والتحمل الجسدى وحاجات الغرائز، ثم طرأت عليه استثناءات سببها فوارق زمانية أو مكانية أو شخصية، وعلى المجتهد أن يراعى من ذلك ما راعاه الله حين أنزل الأحكام، وهذه المراعاة لا تأتى إلا بمعرفة الإنسان كروح ونفس وقلب وعقل وجسد وغرائز، والعلوم هى طريق هذه المعرفة، والتاريخ تسجيل عملى لتصرف هذا الإنسان، والأدب أثر من تخليقه الروحى القلبى، وعلم النفس وصف للنفس الإنسانية، والطب وصف للجسد، وكذلك علم البايولوجى، والرياضيات والهندسة والفلسفة أثر من انتفاضاته العقلية، فاستوى كل العلم والقول المعرفى محاولة وصف للإنسان، وهو المكلف، وله تصدر الفتوى، وبذلك يتبين الارتباط بين جميع العلوم والمعارف بين الفتوى ومناهج الاجتهاد.

لهذا نقول: أوجد العقل المتفتح، والنفس المطمئنة، والذوق الجميل، ليوجد الاجتهاد.

إن تعمّق الفقيه فى هذه الثقافات والفنون والعلوم جميعًا: صعب المنال، ولا نقول به، لكنها الإلمامة العامة، والتسديد والمقاربة هما فى العلوم كما هما فى الأفعال والأخلاق، وبين كل علم والجهل به مراتب، ولا يسوغ لمن لا يكون إمامًا فى علم أن يكون عنه عاريًا.

ولعله قد وضح الآن ما قلته من أن هذه الأصول الفقهية مندمجة متشابكة مع نظرية حركة الحياة، لا تنفك عنها، ولا تفهم بدونها، وكنت أود جعلها موضوعًا واحدًا فى كتاب واحد لولا أن العرف المستولى على الناس والباحثين يمنع ذلك ويستغربه، وأنا من أنصار هذا النمط من المنهجية التى تخلط المعارف المؤدية إلى حقيقة واحدة، ولكن الدعاة

مازالوا لا يحتملون ذلك، وأحسب أن هذا المنهج المستغرَب اليوم سيكون له الرواج ويسود بعد مدة، لأنه ينسجم مع التطور الثقافى العالمى.

ويظهر هذا الاندماج فى منحيين هما فى الكتابين معًا:

* المنحى الأول: أن الاجتهاد الذى نؤصل أصوله فى هذا الكتاب يقوم أساسًا على أنواع من العقلانية يحرك إليها الذكاء غير العادى، وتضبطها أنواع من قواعد التوازن وإدراك المصالح والمثل الأخلاقية العليا والتحليل الموضوعى، وقد صالت الفلسفة فى كل هذه الساحات وجالت، ونمَّتها علوم النفس والاقتصاد، وشرحها الأدب ومزجها بالعاطفة، واستشهد لها التاريخ بشواهد وقصص، ومعرفة حركة الحياة تستند إلى كل ذلك وتأخذ أحسن ما فى هذه المعارف وأجمله وأوضحه وأبلغه، ثم توجزه وترتبه وتقارن بينه، فيكون الخروج من كل ذلك بحصيلة تصلح لأن تكون خلفية لتفكير المجتهد فى فقه الدعوة تهبه الاتزان وعدم التطرف، وتصير أفقًا ممتدًّا أمام سياحته العقلية المقترنة بمحاولة فهم الشريعة، ما يجعل صوابه فى الاجتهاد أكثر احتمالًا مع مرونة وسرعة وانتقال بين المواضيع ورؤية روابطها وأماكن انفصالها، فهى بمثابة التمرين، أو الزناد القادح للذهن المستجلب للمعة الذكاء، وكأنها مدرج تمهيد لقاصد التحليق، حتى لتصبح الإشارات والقرائن والخواطر التى تشهد لنظرية ترابط الحياة هى المحيط المحرك لعقل المجتهد إذا أراد تحديد مواقف الدعوة، وهى التى تؤثر فيه إيجابًا وتستفز أقيسته، تدعوها للظهور والإعلان عن نفسها، لتتولى الأصول والقواعد فى هذا الكتاب مرحلة ما بعد ظهورها من تسييرها فى الطريق الصحيح، وقد غدا هذا المحيط والاستفزاز الخيرى أشبه بالخضرة والماء الرقراق وتغريد الأطيار ولطيف النسائم حين تؤثر فى قلب الشاعر فتهتز منه الأوتار، فيرسل جميل الأشعار.

* المنحى الثانى: أن كل بيئة اجتماعية تؤثر نوع تأثير فى الفتوى، لذلك قال الفقهاء بتغير الأحكام وفقًا لتغير الأزمان، وهى ظاهرة فقهية صحيحة وإن أرادها البعض ذريعة للتملص من أحكام ينبغى أن تكون ثابتة دائمة، لورود نصوص قاطعة فيها أو إجماع بين الصحابة ﷺ، ومن ثم كان فهم الواقع الحيوى الحالى مدخلًا لمعرفة البيئة ومقادير تأثيرها فى تبدل الفتوى، وفى شرح نظرية حركة الحياة حقائق كثيرة تصف الواقع وتبين

جذور كثير من الظواهر المرئية ومراحل تطورها، وجرى تفكيك هذا الواقع إلى أجزائه المكونة له، مع تصنيف يريك الأشباه والنظائر والمتقاربات، وتبين أن بعض هذه الأجزاء مكتشفة من خلال العلوم التطبيقية، وبعضها الآخر هو من الفطرة التى فطر الله عليها الخلق، من سلوك أو لغة أو فن. وبعضها الآخر يفرضه القَدَر الربانى ويحيط به سر ولن تستطيع تغييره. ومنها ما اختاره الإنسان حين خُيِّرَ بين الأمرين فاختار الخير أحيانًا وجنح إلى الشر أحيانًا، وكل ذلك من خلق الله تعالى أو من آثار إرادته، وبإحاطة المجتهد بهذه الملاحظات وأجزاء الحياة ومحاور ترابطها ودرجات تطورها: يدنو من الصواب فى الفتيا، وينال التناسب بين حكمه والحال المحكوم عليه، غير ضارب إلى خيال رمزى نموذجى فوق طاقة من تتوجه إليهم فتواه، فيتعبهم، ولا آخذ بالهواجس فيطرد عنده التسهيل والتخفيف والترخيص، مما يوهى عزائمهم، بل يتوسط فى العموم، ثم يشد ويرخى فى الآن الواحد فى المكانين المختلفين أو تجاه الشخصين المتباينين، ويعمل بالاستثناء ويعطى للنادر حكمه الخاص، ويتفنن فى الإفتاء على درجات متتالية تستوعب تنوع أحوال البشر وتحسب حساب المتغيرات.

* وهكذا فإن الترابط بين كتابى الأصول وحركة الحياة ترابط أكيد لازم، وهذا الترابط فرع من لزوم الثقافة العامة المتنوعة للفقيه المجتهد إذا أراد المهارة وتنمية ذوقه وعاطفته، على أن نجدتنا لم تترك المتفقه إلى مقدار همته على نيل هذه الثقافة، من أدب وفلسفة وتاريخ وفن وعلوم تجريبية، وإنما أعنّاه عبر كتاب نظرية حركة الحياة، فارتدنا له أنواع المعارف، وأتينا برءوس الأمور، ولخّصنا وقَارَنَّا ومزجنا، لنضع له عناوين الثقافة وأسسها فى عرصة واحدة، ليطل عليها ويهيمن على جملتها، لتتوالى فى عقله اللمعات، ليقترن بها ما فى قلبه من أفراح وآهات، فيصفو له الاجتهاد.

* إن الفقيه الدعوى مدعو للتفاعل مع جمهرة الموازين العقلية المستلة من المفاصل الرئيسة فى علوم المنطق والكلام والفلسفة، بل وجميع الحكمة المستخلصة من تجارب الحياة التى خلدتها الأمثال الشعبية وأبيات الشعراء الحكماء. بل يستطرد الأمر لنوجب عليه معرفة إشارات علم النفس والاجتماع، وظواهر الاقتصاد، وحقائق العلوم التطبيقية المحضة، بحيث يفهم كيفية انتظام عمل جسم الإنسان كما يصفه الأطباء، والأداء العقلى

بخاصة، وما لم يختلف فيه من النظرية الداروينية فى النشوء والارتقاء، وخلق العناصر بالتسلسل الذرى وفق الجدول الدورى، وتحويل الطاقة، وتحوير الحركة الميكانيكية، وظواهر الانتظام فى معركة الأعداد والمتواليات الرياضية والأشكال الهندسية وتعاكسها وتوافقها، نزولًا إلى الصفر المعجزة الذى لولاه لما صعد الإنسان إلى القمر ولما كانت مدنيته المعاصرة، مرورًا بالفاصلة الفارزة الكسرية المشاغبة المتحرشة، ولبثًا مع سحر الكُرة التى تخلب حساباتها الألباب، ولقطعها المكافئ الرصين، توغلًا مع المثلثات فى قضائها المبرم، صعودًا إلى العلاقات الفلكية ومداراتها ورقم ملفها السرى «١٠ أُس ٤٠»، وانتهاءً بقوانين الفوضى المنتظمة ورتابتها المُطّردة والتفافاتها على الساذج الذى يتوهمها عبثًا وانفلاتًا وحيصة وتمردًا. كل ذلك واجب على الداعية إذا أراد الاستنباط أو نوى فهم انتفاضات المجتهدين، لأن الداعية يعيش فى عالم معقد، عَقَّدته اختلافات العقول وهواجس النفوس منذ القديم، وليس التعقيد المدنى الحاضر فقط، وما لم يستطع الداعية فهم جذور الأمور ومحركاتها، وتصارع المبادئ والقناعات وما يتبع ذلك من منطق كل فرقة من البشر وأعمالهم التناصرية والعدائية، فإنه لا يستطيع فهم مكانة الدعوة من هذا العالم الفسيح الممتد مكانًا وزمانًا، ومن ثم فهْم منطق وجودها ومدافعتها ونمط الانسلال السليم من الازدحام العظيم.

* وهذه القصة الحيوية العريضة اللازمة للداعية سيحاول كتابنا اللاحق «حركة الحياة» تفهيم بعضها، فى تكميل لمفاد هذه الأصول، ولولا تهمة خرق المنهجية لمزجت الحشدين من المعانى معًا، ولخلطت الأوراق، ولكنى أخاف جفلة الظاهريين الذين يقصرون عن الغص العميق، والذين عَصَرَهُم التقليد وامتص رحيقهم ثم تَفَلَهُم بَثْلا، ممن يميل نحو التجزىء، ويعجز عن الشمول، ويرضى بالرتيب، ويرتدُ عن الريادة.

* إن تربية الداعية المتفقه ليكون فقيهًا دعويًّا مشاركًا على نمط ملتزم متحرر فى آن واحد: هى أخطر قضايا الاجتهاد فى فقه الدعوة، وليس بنافع جمع حقائق ودقائق تراث الإفتاء الضخم وحشره فى كتاب واحد ما لم يستقبله رجال من الدعاة هَذَّبَتهُم الآداب والفنون كما هَذَّبتهُم أخلاق الإيمان، وفتحت لهم الثقافات والعلوم النوافذ بعد إذ فتحت لهم أحكام الشرع الأبواب.

* ومع ذلك، فإن هذا البناء العلمي للفقيه ليس هو كل الصياغة وإنما تبقى الصياغة الكاملة تحتاج المعاناة الحقيقية التي يؤسسها العيش مع أحداث الدعوة، ومع اليوميات السياسية والاجتماعية والاقتصادية للأمة الإسلامية، وبخاصة في عصر العولمة العدواني، ومَن لم يطل فوران قلبه: لا يؤذن لعقله أن يفور، ولا يعرف جمال الأمل مَن لم يعصره الألم، أو يذق حلاوة السكينة مَن لم يهزه القلق، أو يلتذ بالنصر مَن لم تثخنه الجراح.

المحراب والمختبر شقيقان

وتبقى الصفة العامة المميزة لهذه الإطلالة العلمية المعرفية التي أتمناها لفقيه الدعوة: أنها مزج لنتائج العقل وعطاء القلب معًا، فيكون موضوعيًّا عاطفيًّا في آن واحد، ويدور بين المحراب والمختبر في تعبد متكامل.

والعاقل - كما يقول أبو حيان التوحيد -: (ينكشف له بالعقل ما هو ملبوس بالحس، ويتضح له بالحس ما هو غمض بالعقل، ويشهد له بالذهن ما هو مجحود بالظن، وينصحه الإدراك في ما هو مغشوش بالوهم، ويقر به اليقين مما يباعد الشك، ثم لا يبقى أثر للتسويل والتضليل إلا ممحوًّا، ولا كدر في طلب المعتقد إلا صافيًا)[1].

(وأما مَن لا يحيا حياة العلوم وانعزل بقرية بين الخضرة والجبال والطير فليس هو بأقل من صاحب التفاعل الحضاري، فإن هذا تَرِقُّ أحاسيسه، ويحدث له ما يحدث للشعراء من إرهاف والتذاذ بالجمال، فتزكو نفسه، وتَتَّزِنُ، وتطمئن، حتى تكون سكينتها هي الممهدة لقواعد الفقه الكبيرة، وله مع لون وشكل كل وردة خلقها الله تعالى وتلمسها أنامله وتقبِّلها شفته وينطبع خيالها في شغاف قلبه: قُبلة عقلية أخرى لميزان من موازين الفقه، وإطلالة على الاجتهاد.

ولكن المحروم مَن حُرِم هذا وهذا، فعاش في عزلة عن الحضارة والمدنية وعن آيات الله في الآفاق، وهو مَن سجن نفسه بين الجدران حتى يخشوشن طبعه ويتبلد عقله)[2].

---

(١) كتاب (ثلاث رسائل لأبي حيان التوحيدي) / ٧٨.

(٢) من كلامي في باب الجمال وغرام العقل، في المعايير النسبية لربانية التعليم.

أولئك الذين (لم يستوعبوا بعد ملحمة الحياة وأبعاد الصراع بجميع زواياها، ولمثلهم نحن نؤلف هذه الكتب، نريدهم أن يميزوا بين ردود الفعل الإسلامية السريعة والتحديات الجزئية، وبين العمل الشامل الأصيل المرشح للدوام، والذى يهدف إلى إحداث نقلة حضارية متكاملة تستأنف مرحلة جديدة من الحضارة الإسلامية تتصل بمرحلتها السالفة، فتستخدم من أجل ذلك العلوم والآداب والفنون لإعادة بناء النفوس والأخلاق والاقتصاد والسياسة، وتكون نقطة البدء: تربية صفوة منتخبة - منتقاة بمقاييس دقيقة - تربية عميقة، وتمليكها الفكر الذى تفهم به أسرار الحياة وصنعة التأثير، وتطويعها للالتزام بالمنهجية المنطقية فى سيرها، فتؤهل عند ذلك لأن تقود الغير)[1].

مراعاة المعادلات الحيوية فى التطبيق القرآنى والسلفى

ونتيجة لهذه التأملات: نوجب على المفتى مراعاة ظواهر الحياة، فإن الحركة الحيوية خلقة ربانية أبدعها البديع سبحانه وفق حكمة يلمسها المتأملون من أهل العلم، وجعل لها نواميس وموازين تجرى وفقها أبدًا، وأودع فى الأنفس الإنسانية كذلك طباعًا تظل تظهر على نمط متشابه وإن تعاقبت الأجيال، وأقام الله العلاقات بين هذه الطباع بحيث تكشف عن معادلات وتركيبات كأنها القانون الثابت، فكما أن هناك عناصر من المعادن المختلفة تتحد فتكوِّن المركَّبات، وتأتى الكيمياء لتكشف المعادلات الممكنة من خلال تفاعلاتها، فإن العناصر الأخلاقية والنفسية تتركب أيضًا وتتعامل مع بعضها البعض وفق معادلات يمكن أن يكتشفها علم النفس الإيمانى، والمجتهد الدعوى لا يفتى أجسادًا صمّاء، ولكنه يفتى هذه الأنفس الحسّاسة ذات الطبائع المتنوعة، وعليه أن يراعى المعادلات التى تولد من خلال تعامل النفوس إذ هى على سجيتها وهويتها الحقيقية، ولذلك عليه أن يعرف هذه المعادلات والقنوات التى تجرى فيها، وأن يتأمل فى الحياة أكثر وأكثر، وفى التاريخ، وفى المعدن الإنسانى ليكتشف أسرار الخلقة، ثم أن يحرص على معرفة ما اكتشفه غيره من ذلك، ليكون كالطبيب النفسى إزاء مريضه، فلا يصف وصفته لمن سينفذ فتواه إلا من بعد الاطلاع على حاله، ليرى ما يوافقها، وإلا من بعد مراعاة أقوال

(١) من كلامى أيضًا فى بعض ما كتبت.

علماء النفس، لاحتمال اندراجها تحت ظاهرة من ظواهر الحياة لها معادلة معروفة، ذات مفاد خير كانت، أم ذات سلب وفجور، بحسب ما ألهمها الله تعالى.

إن هذه الظواهر إنما هى ظواهر استقرائية يأتى بها التأمل، وتكتشف من خلال استطراد نمط من الأنماط النفسية أو التعاملية فى الورود والتكرر الكثير، ولذلك يعتمد هذا العلم على الظن الراجح، ولا يستطيع أحد أن يدعى الجزم الكامل، لكن ذلك يكفى جدًّا فى تجويد الإفتاء وتوجيه الاجتهاد، ولربما حكى الله سبحانه فى القرآن شيئًا من هذه الظواهر التى خلقها هو.

* فمن هذه المعادلات والظواهر الحيوية - مثلًا - ما اكتشفه عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين قال داعيًا: (اللهم إنى أعوذ بك من جَلد الفاجر وعجز الثقة). نرى من مراقبة الحياة والتاريخ أن الفاسق يكون فى الغالب قوى الإرادة والعزم، ويغلب على الأمناء التراخى، ولسنا نقول بتعميم ذلك، إذًا لأخطأنا، إذ مازال أمر الإسلام يقوم فى كل جيل على عُصبة جَمَعَت الهمّة وصلابة العزيمة الجهادية إلى الأمانة والتدين، ولكن المجتمع فيه من الصنفين الذين استعاذ منهما عمر، ولم يكن هو ولا جنده ولا سلفه ولا ورثته كذلك، رضي الله عنهم أجمعين، لكن المجتمع فيه الكثير ممَّن أشار إليهم، ومن ثمَّ وجب على الإفتاء الدعوى أن يراعى هذه الظاهرة، وأن يقبل تكليف بعض أقوياء المسلمين ممَّن فيهم بقية فسوق، أى الفسوق الذى هو بالمعنى الشرعى، من مقارفة صغائر، وليس الفسوق الذى اصطلح عليه الناس اليوم والذى لا يكون به المرء فاسقًا إلا بأكبر الكبائر وأعتى الفجور والتمرد، ولنا عودة لشرح ذلك فى فصل قادم، وهو مشروح بوفاء فى «منهجية التربية».

* ومن هذه المعادلات ما اكتشفه ابن القيم من الارتباط بين فساد الاعتقاد وفساد العمل، فقال:

(قلَّ من تجده فاسد الاعتقاد إلا وفسادُ اعتقاده يظهر فى عمله)[1].

فعلى الاجتهاد الدعوى - مثلًا - ألا يتساهل فى توثيق مسلم فى عقيدته انحراف وبدَع، وألا يرجو منه خيرًا كثيرًا، ولذلك لا يبنى خطة الدعوة أو موقفها على الاستعانة به

(١) إعلام الموقعين ١/ ١٣٧.

أو مخالفته، وأن يقلل من مصداقية وعوده وعهوده، وأن يرجح احتمال غدره وبعده عن الوفاء، لأن مراقبة الحياة الإسلامية أفادت ذلك.

* ومعادلة ثالثة تؤكد اقتران الشجاعة بالكرم، والجبن والخديعة والمكر بالبخل، وعلى الاجتهاد الدعوي أن يحذر من بخيل، وأن يرجح وقوع سلسلة من المآسي إذا اعتمدنا عليه ورضيناه، وأن يرجو - على العكس - حلمًا ونبلًا وأنواعًا من المروءة من كريم، فيقسو الإفتاء تجاه البخيل ويشدد ويمنع التعامل معه، ويفسح ويوسع للدعوة أن تتعامل مع أهل الكرم.

* وهكذا شأن معادلات وظواهر أخرى ذكرها الحكماء والأدباء وعلماء النفس والفقهاء. ولربما وجدنا في القرآن الكريم إشارات إلى بعض هذه الخلقة والأخلاق مما لا يتعلق بمعنى غيبي أو حكم شرعي.

من ذلك:

* إشارته سبحانه إلى فساد الأرض لولا دفع الناس بعضهم ببعض.

* وجعله سبحانه القتال بين الناس حكمة، من بعد ما اختلفوا إلى فريق إيمان وفريق كفر، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾ [البقرة].

* وصعوبة العدل بين النساء ولو حرصنا.

* و﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ﴾ [آل عمران:١٤].

* ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ [آل عمران:١٤٠]، فالمداولة سنة يريدها الله، والشهادة كذلك.

* وإشارته سبحانه إلى أناس مستضعفين ليس سبيل القوة بمستطاع لهم: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾﴾ [النساء]،

وموطن الإشارة المهمة هنا إلى الرجال، فرُب رجل ولكن ذكاءه ليس بالوافر أو همته دون المقدار، وليس الاستضعاف فى المرأة والصبى فقط.

* ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ [النساء:١٠٠] والفتوى تراعى ذلك، وكأنها تلقين من الله تعالى للمفتى أن يأذن، كما أنها دعوة للمضطهد أن يرحل.

* ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾ [النساء]، فهى ظاهرة إذن، ولعملنا أثر نكاية فى العدو، من ألم وقلق وخوف وحزن وحسرة وحيرة، وليس ما يدعيه الإعلام من ثباتهم بصحيح، بل الهزيمة متوقعة إذا زدنا النكاية.

* ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ﴾ [النساء:١٢٨]. والبخل والحرص، وسلبيات أخرى، وافتراض الفقيه أن كل النفوس أمامه فى ذُرى العلو ليس بصحيح، بل فى كل مجموعة من المؤمنين والدعاة خليط من درجات النفوس، وفى كل عصر منهم من تنطبق عليه ظاهرة: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ [الأنفال:٧]، فهو مؤمن، لكن يريد الأسهل.

* والمكر مكر الأكابر: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾ [الأنعام]، وأما العامة ففيهم التابع المقلد المستضعف أيضًا، وربما كان فى الإحسان لهؤلاء العامة تأليف قلوب، ونوع تحرير لهم من التقليد، وتلقين لهم أن يتمردوا، ليسلموا من بعد، أو يسلم جيل من بعدهم ولو طال الزمن، يقرأون فى تاريخهم أن المسلمين أحسنوا لمستضعفيهم.

* واختلاف درجات الرزق والجاه والهيبة ظاهرة حيوية بأمر الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ [الأنعام:١٦٥].

* وظواهر حيوية مكتوبة على اليهود، هى من جملة المعادلات، منها أبدية عذاب الدنيا: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ [الأعراف:١٦٧]، ومنها التشتت بين الشعوب: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا﴾

[الأعراف:١٦٨]، حتى إذا جاء وعد الآخرة واقتربت نكبتهم الكبرى على أيدى المسلمين: ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الإسراء]، على أجنحة النسور كما يقول تلمودهم، وهى الطائرات التى نقلتهم لإقامة أو إدامة دولتهم التى ينتظرها التتبير عام ٢٠٢٢م فى ظنى الذى تابعنى فيه أخى بسام جرار، أو عام ٢٠١٢م فى ظن أخى سلمان العودة، أو فى زمن ممتد طويل ربما فى ظن أخى عصام العريان، وعند مُذَنَّب هالى سر ذلك، وانتظر «موسوعة التطور الدعوى» لأشرح لك فيها ذلك.

* فهذه المعادلات والظواهر الحيوية إنما هى شىء قليل من كثير نفهم به حركة الحياة، والمفتى مطالب بأن يحيط علمًا بمثل هذه الظواهر سواءً ما تحدث عنها للقرآن الكريم، أوما اكتشفه السلف من المؤمنين، كالذى رويناه عن عمر وابن القيم، أو ما يمكن أن نكتشفه نحن، أو ما اكتشفه بعض الفلاسفة ويمكن أن نقتبسه، ثم يعرض مشروع فتواه على كل هذه المعادلات، لعلها تعدل فيها.

هذى الحياة.... حبر وحليب

واكتشاف هذه المعادلات والظواهر أصبحت صنعة يهيم بها الفقهاء والدعاة والشعراء والعلماء، ومازال المجهول من قوانين حركة الحياة أكثر من المعلوم، وبمقدار سعة استيعاب الفقيه الدعوى لنتائج رصد راصدى الحياة يكون إتقانه لفتواه.

واكتشف د. الحبر يوسف، أحد نبلاء السودان، معادلة منها، وضع لها تعريفًا موجزًا، فقال فى شطر من شعره، إذ هو أستاذ الأدب واللغة:

«هذه الحياة: دعابةٌ وصرامةٌ»(١).

من ظواهرها أن يتناوب فيها الفرح والحزن، والجِدُّ والكسل، والخير والشر، والصدق والكذب، والكرم والبخل، والشجاعة والجُبن، واليقظة والغفلة، وهذه الملاحظة هى إحدى أهم الملاحظات فى طريقة استرسال الحياة، وكل ذلك فرعٌ من سُنة التناقض والتدافع، ومن لم يخطط أموره ويفهمها بموجب مفاد هذا الاكتشاف: يخطأ، ويعتريه الإحباط فى موطن الأمل، فيترك الصعود والولوج إلى فرصة مواتية، أو يأمل أملًا

(١) من أنفاس قريض د. الحبر يوسف نور الدايم / ٢١.

عريضًا ويثق بنفسه وأصحابه يوم انتكاس النفس، فيقتحم بلا حساب، وفى الوقت الغلط، فيكون الفشل، والماهر مَن يحلل النفوس والظرف والمحيط، فيرفق بنفسه وصحبه عند التراجعات، ويدارى معالجًا الهوى والجُبن والبخل والتردد واليأس، يعتبرها من حتميات الحياة الإنسانية، فلا يتقدم إلا بعد تربية، أو يرى رياح القدر قد هبَّت، فحركت سنابل الحقل وأشرعة البحر، فيفهم أنها الفرصة يتيحها التوفيق الربانى، إن لم يسرع اغتنامها فسيعقبها النقيض، فيمد يده فى سويعة الرحمن، فيتركب قدر على قدَر، يلتفان يندمجان يتحالفان، فتكون النقلة، وكذلك حركة الحياة تُكان[1].

إبداع الرازى يمنح مذهب التيسير تعليلاً نفسيًا

ومن المعادلات ما إذا اكتشفها الفقيه جعلها قاعدة فقهية واسعة الأثر، ومنحها مفعولًا مُضاعفاً.

من ذلك معادلة مهمة جدًّا وضعها الفخر الرازى، التقطها عبر إتقانه علم النفس الإسلامى، وجعلها منهجًا فى الاجتهاد مآله التيسير على المسلمين، ومن ثم نقتبسها فتكون سبب تيسير على الدعوة والدعاة.

سماها الرازى: «التمسك بطريقة الاحتياط»، وقد أوردها حين ذكر أن هناك (طُرقًا أخرى سوى القياس، كالتمسك بالمصالح المرسلة، والتمسك بطريقة الاحتياط فى تنزيل اللفظ على أكثر مفهوماته، أو أقل مفهوماته)[2].

وعاد الرازى إلى ذلك فضرب مثلًا لهذه القاعدة:

قول من يقول للزوجة: أنت علىّ حرام.

فبعض الصحابة ثم الفقهاء جعلوه فى حكم التطليقات الثلاث.

وبعضهم: أنه فى حكم تطليقة واحدة، بائنة أو رجعية، على اختلاف بينهم.

وبعضهم: أنه يمين تلزم فيه الكفارة.

---

(١) مبنى للمجهول من كان يكون . رأيته جائزًا.

(٢) المحصول ٥/ ٥٦، ٧٠، ٧١.

وبعضهم: أنه في حكم الظِهار.

وبعضهم: أنه لا شيء.

ثم عاد فشرح هذه المذاهب شرحًا أورد فيه هذه القاعدة **فقال**: (أما من ذهب إلى كونه يمينًا فيحتمل أنه إنما ذهب إليه استدلالًا بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢﴾ [التحريم] سماه يمينا) (ومن ذهب إلى أنه لا اعتبار به: تمسك بقوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة:٨٧] ، والنهي يدل على الفساد، أو البراءة الأصلية) (ومن ذهب إلى أنه للطلقات الثلاث زعم أنه قد يجعل كناية عن الطلقات الثلاث، فوجب تنزيله على أعظم أحواله، وهو الطلقات الثلاث، ثم أدخله تحت قوله تعالى: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق:١]. ومن ذهب إلى أنه للطلقة الواحدة نزله على أقل أحواله).

ثم أكد أن هذا من (تنزيل اللفظ على أقل المفهومات أو على الأكثر)[١].

موطن الاحتياط فيمن أخذ بالأكثر: أنه نظر جانب الشرع، ومَن أخذ بالأقل: نظر جانب المكلفين. هذا ما أفهمه، وحقوق العباد مقدمة على حقوق الله.

وهذه القاعدة هي غير قاعدة الاحتياط التي سنعقد لها فصلًا.

وهذا تمهيد لفهم إبداع الرازي، إذ حتى الآن لم يأتِ الموطن المهم من قوله، وإنما نفهمه حين نرى الرازي يُثنِّي فيميل إلى تضييق تفسير كلام الناس في بعض معاملاتهم، ويأتي بتطبيق آخر مهم لقاعدة الاحتياط في الأخذ بأقل المفهومات من دون أن يسميها ومن دون أن يأتي بهذه الألفاظ، ثم علَّلَ مسلك التضييق بأن:

(السبب فيه: أن حقوق العباد مبنية على الشُحِّ والضِنّة، لكثرة حاجاتهم، وسرعة رجوعهم عن دواعيهم وصوارفهم)[٢].

---

(١) المحصول ٥/ ١١٤.

(٢) المحصول ٥/ ١١٤.

وهذه الملاحظة الاجتماعية مهمة جدًّا، وهى جزء من (الفقه النفسى) كما أراها، وبها نفسر حدود ما يعنيه الناس إذا باعوا أو وَهَبوا هِبة أو طلقوا أو عَبَّروا عن أى معنى من المعاملات بألفاظ تحتمل أكثر من درجة من درجات الفهم والتأويل، فنرجح جانب الطبيعة النفسية البشرية التى فيها بخل وحرص على المصالح الذاتية وتقلُّب فى العواطف والقرارات والمواقف، ولذلك لا نرهق اللافظ بأكثر مفهومات لفظه، لئلا يستثقل تكاليف الشرع، بل نيسر الأمر عليه، ونغلق أبواب الوسوسة الشيطانية التى تدعوه إلى تفلت من الخضوع للفتوى الشرعية، ومثل هذا التعليل النفسى لإمام قديم من أئمة الفقه هو جذر المذهب الحديث فى التيسير، مما ذهب إليه الأستاذ يوسف القرضاوى وغيره وهو أصل منحاهم، وأنا أصححه على العموم كمنهج، ولست ألزم نفسى بحذافير ما أفتوا به بناء عليه، وأنا أهب أخى الشيخ القرضاوى هذين السطرين، يؤيد بهما منهجه الذى حَكَرَ حماسته له، من أجل أن يعضد ما ذهب إليه بشهادة عتيقة فخرية.

فبمثل هذا ينبغى أن يكون منهج التيسير والتنزيل على أقل المفهومات لاصقًا بفقه الدعوة، وأن نأخذ بالاحتياط فى تفسير كلمات الدعاة وألفاظهم، وبخاصة فى أيام الفتن والمحن.

* إن كلام الرازى كلام مهم فوق العادة، وهو يُعَبِّر عن معادلة وظاهرة حيوية استنبط منها قاعدة فقهية، ولو لم يكن فى شرح طريقتى لوجوب التجانس مع حركة الحياة إلا هذا المثال الذى أتى به الرازى لكان ذلك كافيًا فى التدليل على وجوب هذه المنهجية، وهو قد أتاها هنا من باب رؤية الأبعاد النفسية لحركة الحياة، وبها يجب أن نفسر حدود ما يعنيه الدعاة إذا بايعوا. فيحسن بنا، قبولًا لشفاعة الرازى، ألا نلجأ إلى تقويل داعية ما لم يقل إذا قارب الخطأ، بل نميل إلى أحسن المحامل وأبرأ التأويل، وإذا تلكأ فى موطن إقدام: اتهمنا الشيطان بأنه وراء الإحجام، ونلتمس للداعية العذر، أنّ نفسه إنسانية تهفو إلى الضِّنّة والبخل، وإذا أصغى لمفتين: أرجعنا ذلك إلى أخلاق التبعية وقابلية التقليد فى النفس الإنسانية، وكل ذلك ما لم يكن ثَمَّ إلحاح وإصرار.

كذلك قوانين الدعوة وأنظمتها: تصاغ على عجلة أحيانًا، ومن قِبَل دعاة ليسوا فقهاء أحيانًا، فيكون فيها المتشابه، ومذهب الرازى عند اختلاف تفسيرها: أن ننزلها على أقل مفهوماتها، ميلًا إلى التيسير، ما لم تدفع ذلك قاعدة أخرى أقوى.

* وأظن أنه قد وضح الآن ما أعنيه من وجوب تجانس الفقه وتكافؤه مع حقائق الحياة وطبائع الخلقة الربانية، وكأنه تفسير لجانب من قاعدة: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[الأنعام:١٥٢]، فجانب من هذا الوسع: الوسع الخَلقى، وأن نقول للداعية: هكذا خلقك ربك، وهكذا نفهمك. قبل أن يطلبها مِنّا كشهادة يعيا فقهه أن يكتشفها ليلوذ بها من إفتاء داعية صارم شديد حديد، لأنّا نفهم نَسب الداعية القبَلى، وأنه قرشى فى الذروة، لأن الله تعالى خلق الإنسان فى أحسن تقويم، ثم جعل الدعاة خير البشر، كل فى جيله، وهذا يعنى أنهم فى الذروة من الجدول الدورى للعناصر، ليسوا ذهبًا فقط يقنع بالبروتونات الثمانى، بل هم من قبائل ما فوق التسعين، من العناصر المشعة، وهذه العناصر مهتزة المدارات تقفز منها الإلكترونات، فتشع، فتكون الحرارة والحرية والانفجار، ثم هى عناصر ثقيلة بسبب ركازها المخزون الكثير، والقائد العاقل يدرك أن شَغَبَ الداعية دليل إبداعه، وأن قليل الذكاء والزخم هو الذى يدور فى مداره هادئًا أبد الدهور بلا إبداع، وإنْ وُصِف بأنه حديد؛ لذلك لن يقطع القائد شعرة معاوية مع القافز واليورانيوم اللاهب، بل يحويه فى المفاعل، ويجعله يملأ الأرض نورًا وطاقة للاستخدامات السلمية بدل أن ينفجر، بعد ما امتلأت الأرض تعطيلًا وظلمًا وفجورًا وسوقًا وعصيانًا، ولو لم يخرج الفقيه من علمه بالجدول الدورى للعناصر إلا بهذا لكفاه غنيمة، ولاكتفينا بذلك دليلًا على وجوب مسايرة المفتى الدعوى لحركة الحياة.

معادلة نفسية يحقق ألب أرسلان بها معجزة النصر الأكبر

ولأن الفقه الدعوى يتجاوز أحكام الحلال والحرام ليشير إلى حُسن السياسة أيضًا والبراعة فى تقدير المواقف، فإن مثلًا آخر من الاستخدام الجيد لعلم النفس الإسلامى يمكننا أن نقتبسه ونجعله شاهدًا على صحة مذهب تحليل الحياة ومحركاتها وتطورها، وعلى لزوم ذلك للفقيه، يجوّد بذلك فقهه وإفتاءه ضمن منهجية العَرض والتدقيق لمشروع الفتوى الأول الذى يسبق إلى الذهن، مما ذكرناه آنفًا.

* المثال هنا يضربه الوزير السلجوقى العادل الحازم الفقيه الثقة ألب أرسلان رحمه الله، فقد كان مثقفًا بِثقافة شمولية، ولذلك استعمل علم النفس الإسلامى يوم معركة «مَلاذ كَرْد» المجيدة يوم انتصر باثنى عشر ألف مسلم على ستمائة ألف رومى، فقد كان التوازن

مختلًا تمامًا، الواحد بخمسين ، ولا ينفع هاهنا التخطيط العادى، وتسقط مناهج القلب والميسرة والميمنة فى التعبية، وإنما كان نصره العظيم بإلهام رَبّانى جعله يدرك نقطة فى علم النفس الإسلامى تعتمد على ظاهرة سلبية فى حياة الكفار، وهى اعتمادهم على ملوكهم وارتباطهم المعنوى بهم، لا بالله تعالى، خلافًا للمسلمين الذين لا يرتبط إيمانهم حتى بحياة النبى ﷺ ، مما أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا﴾ [آل عمران:١٤٤]، فبنى ألب أرسلان خطته على هجوم جيشه فى كتلة متراصة واحدة تندفع نحو خيمة الملك الرومى، فإذا أسروه أو قتلوه فإن جنود الملك سينهارون معنويًّا وتكون الهزيمة، وتم تطبيق الخُطة بنجاح كامل، وأخذوا الملك أسيرًا، فشاع بين العدو أن الملك قد قُتل، فولوا الأدبار، وغنم المسلمون أكثر من نصف مليون سيف ورمح ودرع، وخيلًا كثيرة وأموالا، بأقل الخسائر، عبر تأمل فى معادلة حيوية نفسية فقط من قائد فقيه مبدع.

وفى تحليل التاريخ العام والتاريخ الإسلامى معادلات أخرى يَحسُن أن يستوعبها كل فقيه يفتى، كمثل المعادلة البسيطة التى ذكرها ابن تيمية وذكرناها فى آخر المنطلق:

الجهاد = الوحدة

ومعادلته الأخرى التى يشهد لها تاريخ محنة خلق القرآن:

كثرة البدع وتنوعها = تحالفها فى جبهة واحدة.

ومعادلة الفيلسوف العالم رئيس وزراء بريطانيا فرانسيس بيكون:

العلم التطبيقى = القوة، عبر المخترعات والصناعة.

لكن يحسن أن نكتفى الآن، ونحيلك إلى كتاب حركة الحياة حين يظهر.

* * *